رحيل

شكّلت أعمال المؤرّخ الفلسطيني الراحل خرقاً في المنظومة التاريخية في المدرسة العربية، حيثُ اتّجه إلى «الأرشيف العثماني»، معتمداً عليه كمرجع في تفكيكّ السرديات الوطنية، كما تمثّلت في النموذج اللبناني، الذي رأى فيه مثالاً عن مفهوم الأسطورة المصطنعة

أنس الأسعد

الحديث عن التاريخ اللبناني هو جزء من الحديث عن سرديّات سلطوية مُتصارعة، هذه هي الفكرة السائدة والتي عزّزها مسارُ من الحروب التي لم تكن لتقنع مُسعّريها، رغم الخسارات الفادحة، بإيجاد صيغة للخروج من تلك الوضعية. قد لا يقول هذا الكلام أيّ جديد أو خصوصية، فهو يحتمل التعميم على مناطق وتواريخ أُخرى باحد وجوهه. فالوثيقة ومن ثمّ الرواية التاريخية التي تُبنى عليها بوصفهما من المؤسّسات الأولية للعقلية التاريخية، سرعانَ ما تتخطّيان الوضعية الإجرائية - المؤرّخ هنا ليس عالماً في مختبر - لتقتحما بعدها عالم السياسة. لكنّ دورَ المؤرّخ يبرز لا في تفكيك كلّ تلك الانحيازات فحسب، بل أيضاً بعدم الوقوف عند حدود مُختبره، وأن يُدرك غاية الادراك أنّ وظيفته خارجَه حيث تجدُّ الروايات المدرسية والسلطوية باحتلال الفضاء.

هذه هي الوظيفة التي محور الباحثُ الفلسطيني عبد الرحيم أبو حسين (1951 - 2022) الذي رحل عن عالمنا مساء الخميس الماضي دوره حولها، وعدّها نقطة انطلاق جادّة في استقراء التاريخ اللبناني الحديث والمعاصر. وأكثر ما تبدّى هذا في مساقين من اشتغالاته؛ الأكاديمية من جهة، حيثُ شغل أستاذيّة التاريخ العثماني في «الجامعة الأميركية في بيروت» منذ عام 1982. وكذلك في دراساته من جهة ثانية، حيثُ التفتَ إلى وثائق لطالما أهملت على مستوى حركة التاريخ العربية. تجاوزَ أبو حسين الكثير من العوائق باعتماده على «الأرشيف العثماني» في فترة مبكّرة.

بل يمكنُ القول إنّ أسبقيّته تتأتّى من حيثُ تقديمه للمكتبة العربية في عقد التسعينيات عمله الموسوم بـ«الكنائس العثمانية في السجل الكنسي العثماني (1869 - 1922)» الصادر عام 1998، وفي العقد الأوّل من الألفية قدّم معلمته التي أضاءت تياراً ما كان ليتفتّح لولا كتابُه «لبنان والإمارة الدرزية في العهد العثماني: وثائق دفاتر المُهمّة (1546 - 1711)» الصادر عن دار «النهار» عام 2005. بهذا فإنّ إنتاجات أبو حسين قد سبقت بسنوات صدور موسوعة «البلاد العربية في الوثائق العثمانية» التي صدر المجلّد الأوّل منها عام 2010، وهي من إعداد وترجمة المؤرّخ العراقي فاضل بيات.

في مقاله على صفحات «العربي الجديد» الذي حمل عنوان «مصداقية الوثائق العثمانية في تاريخ البلاد العربية: حالة تونس نموذجاً» يُشير الباحث والمؤرخ محمد م. الأرناؤوط إلى إشكالية يجتمع فيها ما هو منهجي بما هو سياسي. حيثُ يُحتكَم في التاريخ العربي إلى الوثائق الأوروبيّة، وتُهمل عشرات ملايين الوثائق العثمانية المرتبطة إيّما ارتباط بالأحوال الاجتماعية والسياسية للمنطقة العربية طيلة أربعة قرون وأكثر. ومن إشارة الأرناؤوط العامّة، يمكنُ لنا أن نستوضحَ أيّ جهد كان أبو حسين قد بذله في استجلاء تلك الوثائق وتقديمها للقارئ العربي. والحديث عن الجهد، هُنا، هو تمثيل حقيقي عن تلك الإشكالية التي أشار إليها الأرناؤوط، فالأكاديميات العربية طيلة القرن العشرين ظلّت تتعامل مع التاريخ العثماني انطلاقاً من لحظة تفكّك الإمبراطورية العثمانية فقط. وهذا انعكسَ منهجيّاً إلى الإغراق أكثر بالاعتماد على الوثيقة الأوروبية، مع بعض الإضافات الممكنة من سرديات وطنية ومحلّية.

اشتغالاتُه حول التاريخ العثماني حقّقت اسبقية وجراة

المُتخيَّل في سياق التاريخ اللبناني مزيج طائفي لا وطني

هذه التوليفة التي تفتقر إلى التجانُس في جوهرها، وتعجّ بالكثير من المتناقضات صُدّرت كخطاب سياسي من حركات وأيديولوجيات شتّى، هيمنت على الدول العربية الناشئة خلال القرن الماضي، وهذه الهيمنة هي ما رأى فيها المؤرّخ الراحل «صناعة أسطورة». والقضية لا تقتصر على مركزية نهوض «بطولات» من زمن تاريخي غابر تؤمّن لراهن الأمّة عناصرها المُتخيّلة الجامعة، كما نبّه إلى ذلك بنديكت أندرسون في كتابه «الجماعات المُتخيّلة: تأمّلات في أصل القومية وانتشارها» (صدر عربياً عام 2014 عن «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»)، بل هي في السياق اللبناني تتركّب فيها النزعات المحلّوية والطائفية بما يُعزّي ذلك المُتخيّل عن أي دور يمكنُ له أن ينهض به، ويستحيل إلى مجرّد أهزوجة تقتحم مؤسّسات الدولة من أصغر المدارس المُعنيّة بتواريخ متناقضة ومتحاربة وصولاً إلى تحويل النظام برمّته إلى نظام مُحاصصة يتعذّر معه الوصول إلى شرط تكوين الأمّة والقومية أصلاً، وهذا ما أنتج، ويُعيد إنتاج، سلسلة من الحروب الأهلية.

وإذا كان أبو حسين قد اعتمد في أعماله وظيفياً على «الأرشيف العثماني» مستثمراً في وثائقه رغم تلك الإشكاليات المنهجية والسياسية، وهذا ما تتوّج في عمله «لبنان والإمارة الدرزية»، بيد أنّ كتابَه الأخير «صناعة الأسطورة: حكاية الأمير المتمرّد الطويل في جبل لبنان» (2019) تتكشّف فيه الكثير من الاعتبارات لأنّه خصّصه للحديث عن شخصية الأمير فخر الدين المعني الثاني (1572 - 1635). وتلقى سيرة المعني إجماعاً من أقطاب أيديولوجيّة متنافرة، الأمر الذي يعني أنّ المسَ به قد يفتح جبهات لا واحدة. فهو عند القوميين العرب نهضوي أدّى قتله من قبل العثمانيين إلى قطع الطريق على النهضة العربية، وهو نفسه مؤسّس لاستقلالية لُبنانية باكرة عند المؤمنين بالخصوصيّة اللبنانية.

وفضلاً عمّا تعجّ به كتب التاريخ والأدب المدرسية اللبنانية فإنّ رمزيّة فخر الدين ظلّت محطّ استنهاض للشخصية والكيان اللبناني ابتداءً من أفكار ميشال شيحا والأب بطرس ضو، وليس انتهاءً بأشعار سعيد عقل العُصابية، وكلّ ما سبقَ يأتي في سياق إعادة بعث لسرديّتي «فينيقيا» و«لبنان الملجأ» اللتين تعرّض لهما المؤرّخ كمال الصليبي (1929 - 2011) في كتابه «بيتُ بمنازل كثيرة». ويبدو أثر الصليبي واضحاً في عمل أبو حسين الأخير، من حيثُ أنّ كليهما يرى الحرب الأهليّة اللبنانية حرباً حول التأريخ وروايته، وليست على تقاسُم السلطة وحسب.

شكّلت أعمال المؤرّخ الفلسطيني الراحل خرقاً في المنظومة المدرسية التي روّجت لها أنظمة استبدادية وجماعات أهليّة، وهو إذ اتّخذ من الوطنية اللبنانية نموذجاً درسياً إلّا أنّه نظر إلى ما هو أبعد، كما ظلّت غايتُه منصبّة على النظرية دون أن يقف عند تمثيل واحدٍ لها، ومن هُنا التفتَ أيضاً إلى نقد هذا المُخيال حتّى في بعض السرديات الفلسطينيّة، التي حوّلت حكايات القادة الاقطاعيين في القرن السابع عشر والثامن عشر إلى آباء مؤسّسين لوطنيّة متخيّلة، بطريقة سهلة جدّاً. وأهمية موقف أبو حسين من هذه التيارات وسردياتها لا تقاسُ بحجم المُؤرّخ وقابليّة تحوّلها إلى تسلّطية قامعة في أيّ وقت، بل لأنّها أيضاً قد أعفت نفسها بكسل مُطلق من عبء التفكير الجادّ بالتاريخ الوطني وقنعت بثنائية «البطل المُخلّص» و«المتآمرين الأشرار». وختاماً ينطبق على اشتغال أبو حسين وإن كانَ حقّاً سيتمّ استبعادُه من قبل منظوماتنا التعليمية والسياسية ما كتبه المؤرّخ التركي إلبر أورطايلي في كتابه «حقائق التاريخ الحديث» (تصدر ترجمته العربية قريباً بتوقيع أحمد زكريا): «التاريخ تدريبٌ لا نهاية له كالتدريب الرياضي أو الموسيقي».

عبد الرحيم ابو حسين في بورتريه لـ أنس عوض (العربي الجديد)

اشتغال رفيع

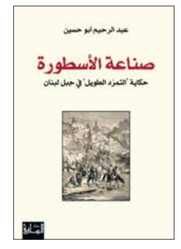

لا تكمن خطورة الاسطورة التاريخية ومثيلتها في تسيُّدها، وقابليّة تحوّلها إلى تسلّطية قامعة في أيّ وقت، بل في أنّها تعفي نفسها بكسل مُطلق من عبء التفكير الجادّ وتقنع بثنائية بليدة «البطل المُخلّص» و«المتآمرين الأشرار». وأكثر ما ينطبق على اشتغال ابو حسين وموقفه النقدي من تلك الاساطير، عبارة كتبها المؤرّخ التركي إلبر اورطايلي يقول: «التاريخ تدريبٌ لا نهاية له كالتدريب الرياضي او الموسيقي».

قراءة

هالة كوثراني في «يوم الشمس»

الانفصال صائغاً الرواية

تحكي الكاتبة اللبنانية في روايتها الاخيرة تفاصيل يوم طويل من سيرة عائلة، و تحيلنا إلى فرويد وعقدة اوديب دون الاكتفاء بالمقولات الفرويدية

عباس بيضون

رواية هالة كوثراني «يوم الشمس» هي، بكلمة، قفزة في مسارها الروائي. نتابع هنا بناءً هادئاً وموزوناً ومحسوباً لرواية. صناعة هذه الرواية تقتضي من الروائية ما يشبه أن يكون كتابة ثانية، أي أنّ النموذج الروائي هو ما يستدعي إليه النصّ، وما يبدو أنه يحكم مضاعفاته ومداراته، بحيث إنّ القصد الروائي يكاد يتحوّل إلى نَفَس، وإلى صعيد منتظم، وإلى سوية كتابية، تنطوي تحتها، أو تتساوق، مفاصل التراجيدية والدراما شبه المضبوطة، وشبه الخافتة، وشبه المتّصلة في النصّ. أي أن هذا القصد هو إيقاع الرواية التي تتحوّل فيها التراجيديا، إلى نوع من سياق، إلى نوع من انتظام، وإلى ما يشبه الجوّ المنزلي، مع ما يضمره ذلك من داخلية واتصال متواترين. أي أن «يوم الشمس» (نوفل، 2022) هي بالدرجة الأولى هذا التحوّل لما يضطرب، وما يتلاحق، وما يتهافت ويصطرع إلى نوع من زمن متناقل، يكاد يكون هو زمن الأب الباقي في كرسيّه، بعد أن أدركه الزهايمر إلى أن يخطفه الموت. «يوم الشمس» يومٌ طويل وثقيل.

منذ أن تبدأ الرواية نجد أنفسنا أمام حدث روائي، نحسّ أن الرواية، على نحو ما، تصدر منه وتسترسل من جوّه، وتكاد تضمره أو تسرّه في كلّ مقاطعه. إنه انفصال الأم عن البيت وخروجها منه لتتزوّج شخصاً آخر غير الأب. لن يُتاح لنا أن نتأمّل مضاعفات هذا الانفصال وذلك الخروج. لن نعود إلى ساعته الأولى ولا إلى تفاصيله. إنه شيء كالقدر، حدث تأسيسي كالسقوط من الجنّة. حدث وراء الأحداث، كأنه أبوها وأوّليتها البادئة. الأم تخرج من البيت وتترك وراءها أباً، حياته أقرب إلى الصفر، وعمّة باقية في حادثة الخروج تواصلها في البيت، حيث تعيش البنت أيضاً في لحظة الخروج، وكأنها هي الأخرى صدرت عنها.

سيكون انفصال الأم لحظة أسطورية. سيكون أسطورة العائلة، وسيحدث قبل كلّ شيء، وسيبقى، خاصّة بعد أن يكتمل بقتل الأم، فقتل الأم هو عاقبة الانفصال، وإعادة ثانية له، وما يترك هذا الانفصال ليس سوى ظلّه المديد، ولا نخطئ إذا قلنا إنه يترك، خلفه وأمامه، فنّاً زاولته الأم، وانتقل منها بدون أن نعرف كيف. اللهم إلا عبر الأثر الجينولوجي - إلى البنت، هو الفنّ الحروفي، الذي هو - كحادثة الانفصال - يبدو جزءاً من الأسطورة. استطراد الرواية في شرحه، والكلام عنه، يعزّز ذلك. لا نقول إن الرواية تبدو تحت إلحاح هذين المصدرين، الانفصال والحروفية. هما متّصلان بدون أن نعرف كيف، إلّا أن يكونا معاً من ذات الأسطورة. يمكن أن نلاحظ بالطبع أوديبية العلاقة بالأم والأب، تلك الأوديبية التي تجعل من الفنّ الحروفي، أيضاً، أوديبية ثقافية. قد يكون قتل الأم وزهايمر الأب هما عاقبة ذلك، إنهما يبدوان جزءاً ختامياً من الأسطورة. يمكن أن نجد هنا مرجعاً فرويدياً، لكنّ رواية هالة كوثراني لا تبني فقط على أصل فرويدي.

الرواية في تجريبها لا تقف هنا، إنها تحاول أن تصنع جديداً في الرواية، هذا الجديد يخطر حين نصل إلى مقتل الأم، نحن هنا على أبواب رواية بوليسية. نفهم أن الأب وراء هذا المقتل، وأن نديم، صديق رؤية، هو الفاعل، بدفع من مالك الذي أحب البنت من دون أن يعلن ذلك، وبدون أن تبادله هي الحب. هنا تغامر كوثراني في الرواية إلى حدّ استحضار الرواية البوليسية. هذا الطموح الروائي ليس وحيداً، حين نقرأ الصفحات المطوّلة التي تتناول الفنّ الحروفي، والتي أردفتها بشكل حروفي في مطلع كلّ فصل من الرواية، حين نقرأ هذه الصفحات نقع على تحليل طويل للفنّ الحروفي، ورأي نقدي فيه يقدّم الشكل على المعنى. عندَ ذاك ننتبه إلى ما في الفنّ الحروفي من أبوية تاريخية تعيدنا إلى أوديبية رمزية. ليس هذا فحسب، لكنّ في الكلام المطوّل عن الحروفية استقصاءً ثقافياً وتاريخياً، وما يشبه الأرشيف، أي إننا هنا في محاولة جادة لبناء روائي على الثقافة والأرشيف. هذا ليس جديداً على الرواية العالمية، لكنّه، إلى حدٍّ ما، جديد على الرواية العربية.

نحن أمام محاولة جادّة لبناء روائي على الثقافة والارشيف

(شاعر وروائي من لبنان)

هالة كوثراني

صوت جديد

الشعر إعادة تفكّر في الأشياء

كاظم عيدي

تقف هذه الزاوية من خلال أسئلة سريعة مع صوت جديد في الكتابة العربية، في محاولة لتبيّن ملامح وانشغالات الجيل العربي الجديد من الكتّاب

بغداد ـ **العربي الجديد**

■ كيف تفهم الكتابة الجديدة؟

ليست لديّ رؤيةٌ واضحة للكتابة الجديدة، لكنّ، بمجملها، هي وليدة بيئتها وزمانها. وكتابة الشعر هي محاولةٌ لهدم الأسس التقليدية وإعادة التفكّر في أصل الأشياء؛ الشاعر كفيفٌ يتلمّس الأشياء بروحه ويُبصر الطريق بتفكره.

■ هل تشعر نفسك جزءاً من جيلٍ أدبيٍّ له ملامحه؟ وما هذه الملامح؟

لقد انتهى زمن الانتماءات، والآن أصبحَت هذه المحاولات تشوّهات أدبية وتحزّباً كتابياً بغيضاً. نحن الآن في عصر الفردانيّة (هذا لا يعني أنّ الأجيال السابقة كانت تخلو من نتاج فرداني)، لذا لا أحبّ أن أكون جزءاً من جيلٍ أدبيّ تحكمه أشكال ومناهج كتابيّة معيّنة. وأهمّ ما يميّز أبناء جيلي الاختلاف في طُرق الكتابة، فلا أرى ملامح أدبيّة محدّدة للحُكم على هذا الجيل.

■ كيف هي علاقتك مع الأجيال السابقة؟

أقرأ كلّ ما أستطيع الحصول عليه من نِتاجهم، فهم معلّمون وتجاربهم مهمّة.

■ كيف تصف علاقتك مع البيئة الثقافيّة في بلدك؟

بعيدٌ كلّ البُعد عن البيئة الثقافيّة في بلدي، بكلّ جوانبها وأنشطتها، وأحاول جاهداً أن أنأى بنفسي عن العلاقات الأدبيّة، وأنشدّ للصداقة بدلاً أيّ مصالح. لكنّي في الوقت ذاته أتابع من بعيد كلّ الأحداث.

■ كيف صدر كتابك الأول وكم كان عمرك؟

صدرت مجموعتي الأولى، «قرية في أعالي الشّجر»، هذا العام عن دار «نينوى» وأنا بعمر 24 عاماً.

■ أين تنشر؟

أنا مُقلّ جدّاً في النشر، وذلك يرجع لأسباب كثيرة؛ منها ما قُلتُه في علاقتي بالبيئة الثقافيّة في بلدي، ومنها انشغالي بالدراسة الأكاديميّة. ولا توجد لديّ منصّة للنشر سوى «فيسبوك» وقلّما أنشر هناك أيضاً.

■ كيف تقرأ وكيف تصف علاقتك مع القراءة: منهجية، مخططة، عفوية، عشوائية؟

أسعى للقراءة المنهجيّة، لكنّ غالباً ما أفشل في ذلك بسبب اهتماماتي المختلفة، غير أن ما يهمّني هو الاستمرار في القراءة. ويبقى الشّعر اهتمامي الأوّل الذي أداوم على قراءته.

■ هل تقرأ بلغة أُخرى إلى جانب العربية؟

حالياً لا أقرأ الأدب سوى باللغة العربية. بالرغم من دراستي الأكاديميّة باللغة الإنكليزيّة، إلّا أنّي لستُ متمكّناً منها كثيراً، وأعمل على تطويرها.

لا أحبّ أن أكون جزءاً من جيلٍ أدبيّ تحكمه أشكال كتابيّة معيّنة

بطاقة

شاعر عراقي من مواليد عام 1998 في النعمانيّة بمحافظة واسط. يدرس طبّ الأسنان في بغداد ويُقيم فيها. صدرت مجموعته الشعريّة الأولى «قرية في أعالي الشّجر» هذا العام عن دار «نينوى».

كاظم عيدي

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

فعاليات

ضباب الصباح، عنوان معرض للفنان السوري اللبناني **غسان عويس**، افتُتح في السادس عشر من حزيران/ يونيو الجاري ويستمرّ حتى نهايته في «غاليري إل تي» بيروت. عبر مجموعة من اللوحات والأعمال النحتية، يُحاول الفنان (1982) التقاط ما يصفها بـ «حالة البرزخ» التي تفصل بين عالمَي الليل والصباح.

يستضيف «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، فرعُ باريس، حتى الـ14 من الشهر المُقبل، معرضاً بعنوان **وقائع سورية: أماكن، نساء ورجال**. يقدّم المعرض، المُقام بالتعاون مع منصّة «الذاكرة الإبداعية للثورة السورية»، مُلصقات من كتاب «وقائع الثورة السورية 2011 ـ 2015»، والذي يوثّق، بالنصّ وصُوَر لأعمال فنّية، أحداثاً شهدتها المدن السورية الثائرة خلال هذه الفترة.

حتى نهاية حزيران/ يونيو الجاري، يستضيف غاليري «كونتوار دي مين» في مرّاكش معرضاً بعنوان **لستُ أدري** للفنان المغربي **لطفي سويدي** (1994). يضمّ المعرض رسومات بالحبر والزيت ومنحوتات وأعمال تجهيز وكولاج، يسائل الفنّان من خلالها مواضيع عديدة، مثل: الحب والولادة والطفولة والمدينة والانتماء.

يستمرّ في «غاليري سلمى فرياني» بسيدي بوسعيد قرب تونس العاصمة، حتى نهاية تموز/ يوليو المقبل، معرضٌ جماعي بعنوان **انتايتلد 2**. يضمّ المعرض أعمالاً لثمانية فنّانين، هُم: **فارس ثابت**، و**مالك قناوي**، و**كاتالينا سيونبرن**، و**يان لاكروا**، و**جلال قسطلي** (العمل)، و**مبارك بوحشيشي**، و**رفيق الكامل**، و**ثامر ماجري**.